البيمارستان المنصوري منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي

حياة ناصر الحجّي *

* حصلت على دكتوراه الفلسفة في التاريخ عام ١٩٧٥ من جامعة لندن.
تعمل استاذاً لتاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ بجامعة الكويت.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة إنجاز مهم من إنجازات عصر سلاطين المماليك وهو البيمارستان المنصوري، الذي قام السلطان المنصور قلاون بإنشائه في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

يقدم البحث وصفا لتأسيس البيمارستان، وكيفية بنائه، وأقسامه، وتجهيزاته، وأدواته، ومؤهلات الأطباء الذين عملوا فيه. ويتناول بالتحليل الشخصيات التي أشرفت على إدارته، وأسلوب العمل في البيمارستان، من حيث تنظيمه كمركز للعلاج وكمركز للتعليم الطبي. ويقدم عرضا مفصلا للخدمات التي كان يؤديها لعامة الناس وخاصتهم، باعتباره مؤسسة اجتماعية توضح مدى عناية المجتمع الإسلامي بالمريض والفقير.

ويبين البحث أن إلغاء الفروقات الجنسية والعنصرية والانتمائية بين المرضى المسلمين المحتاجين للعلاج، بحيث يحظى الجميع بالقدر نفسه من الرعاية والعناية، دون تفرقة أو أولوية أو وساطة، إنما هو دليل واضح على الرغبة في توفير العلاج اللازم لكل مريض طلبا للخير والثواب. كما أن تهيئة العلاج المجاني لكل من يطلب الشفاء لهو برهان على تطبيق مبدأ المساواة في العلاج، والدواء لكل المرضى.

وينظر البحث الى انتظام العمل في البيمارستان المنصوري لقرون تلت على أنه إنجاز حضاري، يضاف إلى الانجازات الحضارية، التي أخذ المماليك على عاتقهم مهمة القيام بها، في حقل خدمة الحضارة العربية الإسلامية.

مكانته التاريخية

عندما زار السلطان المنصور قلاون(١) التربة الشريفة المستجدة لوالدة ابنه الصالح المتوفاة في شوال سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣م، أمر بإنشاء تربة، ومدرسة، و بيمارستان(٢)، ومكتب سبيل، فاشتريت الدار القطبية، وما يجاورها- وهي بخط بين القصرين بالقاهرة، من خالص مال قلاون، وعوض سكان الدار القطبية بالقصر المعروف بقصر الزمرد برحبة باب العيد. وكان انتقال سكان الدار القطبية منها إلى قصر الزمرد في ١٢ ربيع الثاني سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م(٣).

وكان أن قرر المنصور قلاون عمل الدار القطبية بيمارستانا، فندب الطواشي حسام الدين بلالا المغيثي، للتفاوض مع صاحبتها مؤنسة خاتون، فوافقت بشرط أن تعوض عنها بدار تستقر فيها مع أطفالها، فعوضت قصر الزمرد، مع مبلغ من المال، تسلمته، ثم تمت عملية البيع (المقريزي، ١٨٥٣، ج٢: ٤٠٧).

ومنذ تلك اللحظة بدأ في عمارتها بيمارستانا، وقبة، ومدرسة، باسم السلطان المنصور قلاون(٤).

و يعتبر البيمارستان المنصوري حسبما هو مسجل في المصادر المملوكية، أشهر البيمارستانات التي أنشئت في ذلك العصر، وقد أطنب مؤرخو العصر، ورحالته في وصف محاسنه. ومن ذلك ما يقوله الرحالة المعاصر ابن بطوطة عن البيمارستان المنصوري «وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق، والأدو ية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم» (ابن بطوطة، ١٩٧٥: ٥٤).

و يقول القلقشندي نقلا عن ابن فضل الله العمري في «مسالك الابصار»، «وهو الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار، العظيم بناؤه، وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه، وتنوع الأطباء والكحالين، والجرائحية فيه» (القلقشندي ١٩١٣ ــ ١٩٢٢، ج ٣: ٣٦٦).

وكذلك يقول عنه القلقشندي: «وليس له نظير في الدنيا في بره ومعروفه» (القلقشندي، ١٩١٣ ــ ١٩٢٢، ج ٤: ٣٨).

وكان الهدف الاساسي الذي قصده المنصور قلاون من بناء كل ذلك، هو فعل الخير.(٥) وعندما يكون موضوع البيمارستان المنصوري قيد البحث، والدراسة، فإننا نتساءل من أين بنى

البيمارستان؟ وما هي الأسباب التي جعلت المنصور قلاون يفكر بعمل هذ المركز الصحي الخيري؟ وما هي الظروف التي ساعدت على بنائه بهذه الأموال الطائلة، والوقت السريع؟ ونبدأ الإجابة على هذه الأسئلة بذكر أن الدار القطبية، وما يجاورها، اشتريت «من خالص مال السلطان الملك المنصور» (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٧: ٢٧٨).

أما ابن دقماق فيقول: «إن الملك المنصور قلاون لما أراد عمارة المارستان، أخربها (قلعة الروضة)، وأخذ حواصلها، وعمر بها المارستان، والمدرسة، والتربة» (ابن دقماق، ١٨٩٣، ق ١: ١١٠).

وقد نقلت الأعمدة الرخام، والأعتاب، من قلعة الروضة إلى البيمارستان (ابن إياس، ١٩٨٤، ج ١: ٣٥٣).

أما لماذا بنى المنصور قلاون البيمارستان المنصوري، فإن المنصور قلاون لما توجه وهو أمير إلى غزو الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م أصابة بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من البيمارستان النوري، فبرأ، وركب حتى شاهد البيمارستان، فأعجب به، ونذر إن أعطاه الله الملك أن يبنى بيمارستانا، فلما تسلطن، أخذ في عمل ذلك (المقريزي، ١٨٥٣، ج ١: ٤٠٦).

أما ابن إياس فيذكر في «بدائع الزهور في وقائع الدهور» أن «سبب بناء هذا البيمارستان، وهذا المعروف، والآثار العظيم، الذي صنعه قلاون، قيل إنه أمر بشيء كان له فيه اختيار، فخالفه جماعة من العوام، ورجموا المماليك، فغضب عليهم السلطان، وأمر المماليك أن يقتلوا كل من وجدوه من العوام، فاستمر السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام، فقتل في هذه المدة ما لا يحصى عددهم من العوام، وغيرهم، وراح الصالح بالطالح، فلما تزايد الأمر، طلع القضاة مشايخ العلم إلى السلطان، وشفعوا فيهم، فأمر بكف القتل عنهم، بعدما قتل من الناس جماعة كثيرة.

فلما جرى ذلك، ندم السلطان على ما وقع منه، فأشار عليه بعض العلماء أن يفعل شيئا من أنواع البر والخير، لعل أن يكفر عنه ما جرى منه، فشرع في بناء هذا البيمارستان، وصنع فيه هذا الخير العظيم» (ابن إياس، ١٩٨٤، ج ١: ٣٥٤). ومع تعدد الروايات عن سبب إنشاء البيمارستان إلا أننا نرى أنها لا تتعارض من ناحية أن هدف الخير كان من أهم الدوافع وراء هذا العمل الجليل، ونحن نرجح ذلك.

بناء البيمارستان وعمارته

وَكَّلَ المنصور قلاون الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي(٦)، «أمير جندار» في وقف ما

عينه من المواضع، وترتيب أرباب الوظائف، وغيرهم، وجعل «النظر» لنفسه أيام حياته، ثم من بعده لأولاده، ثم بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٢٦) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧).

و يقول القلقشندي: «ونظره رتبة سنية، يتولاه الوزراء، ومن في معناهم» (القلقشندي، ١٩١٣ ــ ١٩٢٢، ج ٣: ٣٦٦) ومنذ ذلك الوقت ظهرت وظيفة «نظر البيمارستان»، أي القائم على جميع شئون البيمارستان المنصوري، «وهي من أجّل الوظائف، وأعلاها، وعادة «النظر» فيه من أصحاب السيوف، لأكبر الأمراء بالديار المصرية» (القلقشندي، ١٩١٣ ــ ١٩٢٢، ج ٤: ٣٨).

ورتب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي(٧) مشرفا على عمارة البيمارستان، فأظهر من الاهتمام بالعمارة، والبناء، ما لم يسمع بمثله. وقد اجتهد الأمير سنجر الشجاعي في جلب المواد الضرورية للبناء، من مختلف البلاد، كما أحضر الأعمدة الرخامية اللازمة، ووضع له تخطيطا متكاملا. فعمرت في أيسر مدة، وأنجزت العمارة في أحد عشر شهرا سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، بحيث لا يصدق الناظر إليها أنها شيدت خلال هذه المدة القصيرة(٨).

وفي هذا الصدد يقول المقريزي إن طائفة من أهل الديانة «عابوا المارستان لكثرة عسف الناس في عمله» (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧). ولعل السبب في هذا القول، يعود إلى أن الأمير سنجر الشجاعي عندما بدأ العمارة، بعد تكليف السلطان له، أخرج النساء من الدار القطبية من غير مهلة. ثم أخذ ثلثمائة أسير، وجمع صناع القاهرة، ومصر، وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين شغلا، وشدد عليهم في ذلك، وكان صارما في كلامه، فلازموا العمل عنده. ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان، والعمد الرخام، والقواعد، والاعتاب، والرخام البديع، وغير ذلك. وصار يركب إليها كل يوم، و ينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى البيمارستان، ثم يلازم المكان، فيقف مع الصناع على السقالات حتى لا يتوانوا في عملهم. وأوقف مماليكه على مشارف الطرق. فكان إذا مر أحد، ألزموه أن يرفع حجرا و يلقيه في موضع العمارة، ولم يُعْفِ أحداً من عمل ذلك، فتحذر الناس من المرور في تلك المنطقة (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧).

ونتيجة لكل ذلك، ظهرت بعد الانتهاء من عملية بناء البيمارستان فتوى بعدم جواز الصلاة في تلك العمائر، بل إن الدخول إليها مكروه. فشق ذلك على الأمير الشجاعي، وجمع القضاة، ومشايخ العلم، فانتقد بعضهم ولاة الأمر الذين لا يترددون في اغتصاب الأراضي، والعسف مع

العمال، وهدم ما عمّره الغير، فانتاب الشجاعي قلق شديد، وتحدث في ذلك الأمر مع الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد(٩)، وبين له أن المنصور قلاون إنما أراد بهذا العمل محاكاة نور الدين الشهيد، والاقتداء به، لرغبته في عمل الخير (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧ــ ٤٠٨).

ويفسر المقريزي أسباب ذلك الموقف من القضاة، والشيوخ، نتيجة أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم، وإخراجهم منها ظلماً، واستعمال أنقاض القلعة بالروضة، والعسف مع العمال، وتسخير الرجال (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٨). ولكن استنكار الناس لذلك كله لم يلبث أن تلاشى، إذ اعتاد ذلك المجتمع على تطاول أصحاب السلطة على أملاك الآخرين، والعسف مع العمال، والمستخدمين، وإن تفاوتوا في جرأتهم على إحداث ذلك الظلم، ومقداره. ومن ثم أقبال الناس على هذه المؤسسة الخيرية الصحية دون حذر، أو توجس.

وعند عودة المنصور قلاون من دمشق، في شعبان سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، رغب في الاطلاع على سير العمل في بناء تلك المؤسسة الدينية، التعليمية، الصحية، حيث شاهد القبة الموقوفة لدراسة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والمدرسة المقررة لتعليم العلوم الشرعية، والعبادات الفقهية، والطب، والحساب، والبيمارستان، لشفاء المرضى من جميع الأسقام. ثم ترأس هناك اجتماعا موسعا، ضم العلماء، والأئمة، والقراء، والشعراء، بحضور المشرف على البناء الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، ثم غادر المكان، وهو مسرور بما رأى من منجزات ضخمة متكاملة (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ١١٥).

وفي رمضان سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م أنجزت عمارة البيمارستان الكبير المنصوري، والمدرسة والقبة (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٥٦) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨:٩) (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ١: ٧٢٥).

وقد انفرد البيمارستان بأواوينه الأربعة، وبكل إيوان «شاذ روان»(١٠)، وبدور قاعتها فسقية يصير إليها الماء من «الشاذروانات». كما تميز برخامه الفاخر، وبساتينه، ومياهه الوفيرة، بحيث لم يكن له مثيل في مصر والشام (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٥٦ ــ ٥٧) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦).

ولما كملت عمارة البيمارستان أوقف السلطان المنصور قلاون من أملاكه القياسر، والرباع، والحوانيت، والحمامات، والفنادق، والأحكار، وغير ذلك. إلى جانب عدد من الضياع بالشام. وكان يتوفر من كل ذلك شهريا مبلغ كبير(١١)، «وجعل أكثر ذلك على البيمارستان» (ابن

الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٩). ولعل السبب وراء ذلك يعود إلى اعتقاد القائمين على البيمارستان بأهمية الخدمات الصحية، والوقائية، والاجتماعية المختلفة، التي سيكون البيمارستان مركزا لها. الى جانب شمولية هذه الخدمات، وعموميتها، لجميع الناس، الأمر الذي يستلزم بذلا منتظما، ومستمرا.

وكان يتوفر من جملة الأملاك الموقوفة على البيمارستان في مصر وغيرها «ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة» (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦).

ومهما كان الاختلاف بين مصادر التاريخ المملوكي في قيمة المبالغ المخصصة لكافة مصارف البيمارستان، فإننا نفهم منها جميعا، أن ما رصد لأجل ذلك كان مبلغا طائلا، تحقيقا لهدفي الامتياز، والكفاية، في جميع الخدمات التي يؤديها البيمارستان المنصوري. ومن ثم يقول ابن الفرات: «وتنوع السلطان الملك المنصور، أجزل الله ثوابه ورحمه، في وجوه البر والقربات، وهذه الجهات المباركة. والأوقاف المبرورة باقية، مستمرة، يزيد وقفها و ينمو بحسن نية واقفها، ومباشرة نظارها، و ينقص في بعض الأحيان، و يفسد بسؤ تدبير مباشرتها» (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ١١).

وقد كان للأوقاف دور رئيسي في توفير ذلك الريع الوفير، وفق جدول زمني منتظم، ومحدد، بحيث لا يقع أي عجز مادي، قد يسبب قصورا في العناية الطبية، أو الرعاية الصحية التي يحققها البيمارستان لعامة الناس، طيلة الوقت. ومن ذلك الريع الطائل كان يصرف على احتياجات البيمارستان، ومن فيه من المرضى المقيمين، والطارئين، وما تحتاج إليه كل طائفة منهما من الدواء، والشراب، والغذاء، والكسوة. بالإضافة الى أجور الأطباء، والموظفين من أمناء، ومشرفين، وفراشين (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٦)، (ابن إياس، ١٩٨٤، ج ١: ٣٥٣). وتقع على عاتق «ناظر الوقف»(١٢) تولي مهمة تأجير أوقاف البيمارستان، على مختلف أنواعها، بحيث تكون مدة العقد ثلاث سنين، وأن يكون المؤجر مسلما مقتدراً، ورعاً، تقياً، ملتزماً. و يتولى «الناظر» الإشراف على تحصيل الإيجارات، وعمل الترميمات، والإصلاحات اللازمة (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦١ ــ ٣٦٢).

وقد افتتح المنصور قلاون نفسه البيمارستان، في حفل كبير، شارك فيه الأمراء، والقضاة، والعلماء، والأئمة، والحكماء. وقدمت فيه مختلف أنواع الأشربة والأطعمة. ثم أعلن قلاون أمام الملأ أن هذا البيمارستان لجميع المسلمين من مختلف الطبقات العليا، والدنيا، على حد سواء. و يتساوى في الانتفاع منه، الملك، والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى.

وسوف يتوفر فيه من الأطباء والمساعدين، والصيادلة، والأدوات، والأدوية، ما يكفي لعلاج جميع الأمراض الحسية، والعصبية، والعقلية، باستخدام مختلف الأساليب العلاجية، من عقاقير، وجراحة، بحيث يجد فيه كل مسقوم ما يفيده، ويحقق له الصحة والعافية. كما يحق لمن يخرج منه معافي كسوة، ومن مات جهز، وكُفِّن، ودفن(١٣).

وقد نص على ذلك كله حرفيا في وثيقة الوقف(١٤): «.. وهذا البيمارستان.. لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء، من الأغنياء المثرين، والفقراء المحتاجين، بالقاهرة، ومصر، وضواحيهما، من المقيمين بهما، والواردين إليهما من البلاد والأعمال، على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم، وأوصابهم من أمراض الأجسام، قلّت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس، خفيت أو ظهرت واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الأنحراف عنه والأعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه، وإصلاحه، بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب» (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٣ ــ ٣٥٨ ــ ٣٥٩) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٣٨). وزيادة على ذلك تؤكد وثيقة الوقف ان البيمارستان المنصوري للجميع:

«يدخلونه جموعاً ووحداناً، شيوخاً وشباناً، وبلغاً وصبياناً، وحرماً وولداناً، يقيم به المرضى الفقراء، من الرجال والنساء، لمداواتهم إلى حين بروئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب والأهلي والغريب، والقوي والضعيف، والدنيء والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك، ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله العظيم» (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٢ــ ٣٠٣، ٣٥٩) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٣٨ــ ١٣٩).

وهكذا كان البيمارستان، حسب المرسوم السلطاني، مفتوحا على مدى أربع وعشرين ساعة، لتقديم مختلف الخدمات الطبية لكل مريض أيا كانت منزلته، بل يتساوي في الاستفادة من هذه الخدمات الطبية الغني والفقير، على حد سواء، دون تمييز (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٥٨) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٣٨ــ ١٣٩). ولاشك أن إلغاء الفروقات الجنسية، والعنصرية، والانتمائية، بين المرضى المسلمين المحتاجين للعلاج، بحيث يحظى الجميع بنفس القدر من الرعاية، والعناية، دون تفرقة، أو أولوية، أو وساطة، لهو دليل واضح على الرغبة في توفير العلاج اللازم لكل مريض، وذلك طلبا للخير والثواب. كما أن تهيئة العلاج المجاني لكل من يطلب الشفاء لهو

برهان على تطبيق مبدأ المساواة في العلاج، والدواء لكل المرضى. ومن جانب آخر تحذر وثيقة وقف السلطان قلاون «ناظر الوقف» من أن يعالج في البيمارستان يهوديا أو نصرانيا. كما تحذره الوثيقة كذلك من أن يوظف أو يستخدم من الأطباء، أو من المباشرين، أو من أرباب الوظائف بهذا البيمارستان يهودياً أو نصرانياً، فهو وقف للمسلمين دون غيرهم من اتباع الديانات الأخرى (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٧) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤١ ــ ١٤٦).

التجهيزات الداخلية

وجهز البيمارستان بالأسرة، والفرش، والطراريح، والأنطاع، والمخدات، واللحف، والشراشف، ولكل مريض فرش كامل (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ١٢٧) (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٣) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤١). ويقع على عاتق «ناظر الوقف» تزويد البيمارستان بانتظام بما يحتاج إليه من أسرة حديد، أو خشب، حسب الحاجة، مع لحف محشوة بالقطن، وطراريح محشوة بالقطن أيضا، وملاحف قطن. وللناظر الحرية في شراء كل ذلك جاهزا من الأسواق، أو الإيعاز إلى الخياطين لعمل ما يريد وفق الأجرة المناسبة. ويجب أن يحرص «ناظر الوقف» على أن يهيء لكل مريض ما يلائمه من سرير، وفرش، حسب حالته الصحية (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٣) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤١). كذلك كان من واجبات «ناظر الوقف» تزويد المرضى يوميا بالمشموم، كما يخصص لكل مريض أواني فخارية لطعامه، وأقداح زجاج لشرابه، وأباريق فخار، مع سرج، وقناديل وزيت للوقود، من أجل الإضاءة (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٤) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٢ ــ ١٤٣).

وقد نصت وثيقة الوقف أيضا على ضرورة صرف مراوح من الخوص، ليستخدمها المرضى في التخفيف من حرارة الصيف. وخصصت في البيمارستان أماكن لطبخ طعام المرضى، حيث كان يطبخ لهم الشوربة، والرز، والدجاج، والفراريخ، واللحم. وكان لكل مريض قائمة طعام خاصة لغدائه وعشائه، حسب أوامر الطبيب المعالج (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٥) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٣).

وقد اوقفت حقول معروفة بأكملها من أجل مد البيمارستان بالخيار البلدي، والتمر حنا، والياسمين (إبن إياس، ١٩٨٤، ج ١: ٣٥٣).

كما قضت وثيقة الوقف على أن يكون هناك غطاء للأواني التي يقدم فيها غذاء المرضى لمنع التلوث، ويختص كل مريض بإناء منفرد لغذائه دون مشاركة أحد من أجل الوقاية الصحية

(ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٤) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٣). و يظهر هنا بوضوح أن المشرفين على البيمارستان اعتمدوا مبدأ النظافة، والحرص، كأسلوب وقاية ضد عدوى الأمراض.

وتنص وثيقة وقف المنصور قلاون على مصالح البيمارستان المنصوري أيضا بتزو يده بالفواكه، والخمائر، والسكر إما لأجل عمل الأشربة السكرية، وإما من أجل صناعة المعاجين (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٣) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٢).

ولعله من المفيد هنا أن نضيف انه «أشرط أيضا في وقفه أن يحضر في كل ليلة من أرباب الالآت أربعة يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء، وأجرى عليهم الجوامك[١٥] في كل شهر» (ابن إياس، ١٩٨٤، ج ١: ٣٥٣).

التنظيم الطبي والعلاجي

كان من ضمن مسئوليات المحتسب[١٦] أن يأخذ على الأطباء عهد أبقراط، فيحلفهم «أن لا يعطوا احداً دواء مضراً، ولا يركبوا له سما، ولا يصفوا سما عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الذي يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم، عند دخولهم إلى المرضى، ولا يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه» (القرشي، ١٩٧٦: ٢٥٦).

وقَسَمُ الأطباء هذا، يماثل العهد الذي يقطعه الطبيب اليوم عند تخرجه، ليبدأ العمل في أحد المستشفيات. ولا شك في أن الحلف الذي يأخذه الطبيب على نفسه بحضرة المحتسب، يجعله فيما بعد مسئولا من الناحية القانونية، عند مخالفة أي من شروطه.

وأما الكحالون[١٧]، فكان المحتسب لا يعطيهم إذن العمل، إلا بعد إجراء الامتحان المقرر، والخاص بالعيون، وما يتعلق بها من أمراض، وظواهر، وعقاقير، فإن اجتاز الكحال الامتحان أخذ على نفسه قسماً علنيا بحضرة المحتسب، بأن يعمل باخلاص وأمانة متبعا أحدث الوسائل في العلاج، وأجود أنواع العقاقير، والأكحال (القرشي، ١٩٧٦: ٢٥٧).

وأما المُجَبّرون[١٨] فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر، إلا بعد أن يمتحنه المحتسب في كتب الجبر، وأن يعلم عدد عظام جسم الإنسان، وشكل كل واحد منها، وصورته، وقدره، حتى إذا

انكسر منها شيء، أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته التي كان عليها (القرشي، ١٩٧٦: ٢٥٨).

وأما الجرائحيون(١١)، فيجب عليهم أن يعرفوا علم التشريح، وأعضاء الإنسان، وما فيه من عضل، وعروق، وشرايين، وأعصاب. وأن يعلموا كيفية استخدام مختلف أدوات الجراحة بمهارة تامة، بحيث تتم الجراحة بنجاح دون مضاعفات. ويحصل أحدهم على الرخصة بمزاولة الجراحة من المحتسب، بعد أن يثبت له علمه بكل جزيئات علم الجراحة (القرشي، ١٩٧٦: ٢٥٨ ــ ٢٥٩).

ولاشك في أن هذه الإجراءات التي يقوم بها المحتسب نحو مختلف فئات الأطباء، تدل على حرص الدولة على مراقبة حسن العمل، والتدقيق مع كل من يعمل بهذه المهنة، فيكون الطبيب المرخص مالكا لإذن رسمي، يتيح له ممارسة المهنة بحرية وفق الشروط المتفق عليها. وإذا ما انحرف عنها، أو تجازوها فإن ذلك يضعه في موقف المساءلة القانونية أمام المحتسب، الذي يمثل الدولة في هذه الحالة. وعلى ذلك سيقتصر العمل في هذا الحقل الوقائي والطبي على أصحاب الكفاءة والعلم دون الدجالين، ومحترفي الشعوذة.

وقد رتب في البيمارستان أطباء للأمراض الباطنية، وأطباء للعيون، وأطباء للجراحة، وأطباء للعظام، لمعالجة مختلف أمراض العيون، والباطنية، والعظام، للنساء والرجال. كما رتب فيه الفراشون والفراشات، والقومة، لخدمة المرضى، وإصلاح أماكنهم، وتنظيفها، وغسل ثيابهم، وخدمتهم في الحمام، وقرر لهم مقابل كل ذلك الرواتب السخية (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٣ ــ ٣٠٤) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٩) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٨٨) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٥). وأفرد لكل طائفة من المرضى قسماً خاصاً، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها، وجعلت قاعة منفردة للرمدى، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن لمرضى المرارة من الرجال، ومثله للنساء. وزودت جميع الأماكن بالماء لمختلف الأغراض (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ١٢٧) (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٣، ٣٦١) (المقريزي ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩).

وقد كان لكل قسم من أقسام البيمارستان ما بين طبيب، وثلاثة، حسب اتساع القسم، وعدد المرضى، وقد اشتملت المراكز الطبية على طائفة الأطباء، وطائفة الكحالين، وطائفة الجرائحية، وطائفة المُجبِّرين. وكان لكل طائفة رئيس ينظم شئونها، وتقسيم العمل بين أفرادها

(ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٣) (القلقشندي، ١٩١٣ــ ١٩٢٢، ج ٥: ٤٦٧) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦).

وكان رئيس الاطباء مسئولا عن طائفة الأطباء ويتمتع بصلاحية إعطائهم الإذن في ممارسة العلاج. كما كان لرئيس الكحالين نفس هذه الصلاحيات على طائفة الكحالين، وأيضا كان لرئيس الجراحين نفس الشيء على طائفة الجراحين (القلقشندي، ١٩١٣ــ ١٩٢٢، ج ٥: ٤٦٧).

توضح وثيقة الوقف أيضا حرص المنصور قلاون على تطبيق نظام المناوبة (الوردية) بين الأطباء، «يباشرون المرضى والمختلين، الرجال والنساء بهذا البيمارستان، مجتمعين ومتناوبين، باتفاقهم على التناوب ، أو بإذن الناظر في التناوب» (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٦) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٤). وأن تكون العناية الطبية مهيأة بالبيمارستان ليلا (الخفارة)، لمواجهة حالات الطوارىء، فيلتزم الأطباء «المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين» (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٦) (عيسى بك، ١٩٨١، ١٤٤). ولابد أن يكون السبب وراء شروط الواقف على ضرورة تواجد الأطباء بالبيمارستان على الدوام، وتناوبهم العمل ليلا، هو وجود القسم الداخلي للمرضى المؤقتين، ووجود قسم الأمراض العقلية والعصبية، للمرضى المقيمين، مما يستلزم تواجد الأطباء بشكل مستمر، بالإضافة إلى «قسم الطوارىء» الذي يستقبل الحالات الطارئة، والحوادث المفاجئة، على مدار الساعة. كما نصت وثيقة الوقف على أجور الأطباء بحسب ما يقتضيه الزمان، وحاجة المرضى، وخبرة الطبيب، «ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا البيمارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين، والكحالين، والجرائحيين، بحسب ما يقتضيه الزمان، وحاجة المرضى، وهو مخير في العدة، وتقرير الجامكيات، ما لم يكن في ذلك حيف، ولا شطط. (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٥) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٤).

وقد قسمت منفعة البيمارستان بين رعاية المرضى المستقرين فيه، وبين مرضى العيادة الخارجية وأيضاً المرضى المستقرين في منازلهم، فقد حظي مرضى المنازل بالرعاية الطبية، والدواء، والشراب، والغذاء، حتى زاد عدد مرضى المنازل في بعض الأوقات على مائتي مريض (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٧) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٦) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩).

وقد بلغ عدد المترددين على البيمارستان في قسم العيادة الخارجية في النصف الأول من

القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حوالي أربعة الآف نفس (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٦).

وهيئت في البيمارستان أماكن لتحضير الأشربة، والأدوية، والمعاجين، وتركيب الأكحال، «والشيافات»(٢٠)، والسفوفات، وعمل المراهم، والأدهان، وتركيب «الدرياقات»(٢١). وأماكن أخرى لحواصل العقاقير، وغيرها، من مختلف الأصناف. ومكان يفرق منه الشراب، وغير ذلك من جميع ما يحتاج إليه (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٤، ٣٦١، ٣٦٣) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦) (المقريزي، ١٩٣١ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٣٩، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٧). إذن وجد في البيمارستان مطبخ، ومعمل لصناعة الأدوية المركبة، وتحضير العقاقير، ومخازن لحفظ المواد الخام، وصيدلية تتوفر فيها الأدوية الجاهزة (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٣). وقد رتبت في البيمارستان صيدلية فيها موظفان، اشترط فيهما الأمانة والتدين، أحدهما صيدلي يتولى حفظ الأدوية والعقاقير، وكان مسئولا عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء، والثاني معاوناً للأول، مهمته إعطاء الأدوية للمرضى، أي بمثابة ممرض للأجنحة. وواجبه أن يتأكد من أن كل مريض قد تناول الدواء الموصوف له، وكذلك الإشراف على المطبخ، وتوزيع الطعام على المرضى كل حسب ما وصف له (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٥، ٣٦٤) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٢). وقد كان يصرف من البيمارستان في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة، ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري في اليوم الواحد، للمرتبين من المرضى، والطوارىء، غير السكر، والأدوية المطبوخة المركبة، بالإضافة إلى الأغذية، والأدهان، والدرياقات، وغيرها (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩).

وفي ١١ رمضان سنة ٦٨٤ هـ/١٠ تشرين الثاني ــ نوفمبر سنة ١٢٨٥م تولى الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد أبى حليقة وظيفة رئاسة الطب في البيمارستان المنصوري. وقد أصدر له المنصور قلاون نسخة تقليد بتولى هذا المنصب. وقد شمل مرسوم التقليد أيضا أخويه القاضيين علم الدين إبراهيم، وموفق الدين أحمد، إذ قضى بتعيينهما مستشارين في أمور تدريس الطب بالبيمارستان. وقد كتب القاضي محمد بن المكرم نسخة التقليد هذه (ابن عبد الظاهر، ١٩٦١: ٢٢١ ــ ٢٢٤) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٢ ــ ٢٥) (القلقشندي، ١٩١٣ــ ١٩٢٢، ج ١١: ٢٥٣ ــ ٢٥٦). وتبدأ نسخة التقليد بذكر الله سبحانه وتعالى، والشهادة برسوله الأعظم، وأن أفضل العلوم ما خدم العقيدة الإسلامية والإنسان. وقد فوض إلى الأخوين القاضي علم الدين إبراهيم، والقاضي موفق الدين أحد مهمة تدريس الطب في البيمارستان، لما اتصفا به من الخلق، والعلم، والكياسة. أما القاضي الحكيم مهذب الدين فأوكل إليه رئاسة

الأطباء والتدريس، وهو بذلك يجمع بين تعليم الطب، وممارسته، حيث أخذ المهنة عن والده، وتفوق به خبرة وعلما، وليتق الله سبحانه في التدريس والمهنة (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٢٢١ ــ ٢٢٣) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٢ ــ ٢٣).

وتنص نسخة التقليد على أن يكون الحكيم القاضي مهذب الدين مخلصا في علمه، وعمله، حكيماً في الصرف على مختلف الحاجات الضرورية، والثانوية، حريصاً في الإشراف على الأطباء الباطنية، والعيون، والجراحين، مع مراعاة مراتبهم، ودرجاتهم، التي رقوا إليها عن علم وكفاءة. وأن يرأس لجان الفحص، والتشاور، في عمل العمليات الضرورية، بحيث لا تنجز أي عملية جراحية، إلا بحضور فريق من الأطباء المشهود لهم بالخبرة، والتخصص. كما يجب أن يكون رائدا في مجال الوقاية، ومحاربة مظاهر الشعوذة، والدجل، وأنماط الطب الشعبي، التي كانت تمارس في مختلف أنحاء البلاد، وتسبب الكثير من الضرر للناس. وليعمل من أجل نشر الوعي الصحي بين طبقات المجتمع على اختلافها، تحت شعار الصحة للجميع (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٢٢٣) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٣ ــ ٢٤).

كما يتحتم عليه الإشراف المباشر على مختلف أنواع الأدوية المستخدمة في البيمارستان من شراب وعقاقير، وأدوية مركبة، وغير مركبة، كما يجب أن يكون حريصاً عند شراء المواد الخام اللازمة لصناعة هذه الأدوية داخل البيمارستان. وليكن في أعلى درجات الانتباه عند توظيف الراغبين في العمل بالبيمارستان بأقسامه المختلفة، في الصيدلية، أو قسم التغذية، أو إدارة الصيانة العامة، أو في دراسة الطب.

فلا يقبل طالب وظيفة، أو علم، إلا بتزكية اولا، ثم مقابلة شخصية، فلا يصل إلى هذه الأماكن إلا من يستحقها عن خلق، وعلم، وجدارة. أما إذا أساء أحد من هؤلاء التصرف بعد التعيين أو التسجيل فلا يحق له رفضه وطرده، إلا بعد مشاورة المجلس المسئول لأخذ رأي جماعي نهائي بشأنه (ابن عبد الظاهر، ١٩٦١: ٢٢٣) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٤). أما فيما يتعلق بالأخوين القاضي علم الدين إبراهيم، والقاضي موفق الدين أحمد، فيجب عليهما حق النصح، والمشورة، والتعضيد، وتوضيح الجائز من الأعمال الطبية، والمرفوض شرعاً، فلا يتم أي عمل طبي من بتر، أو منع، أو غير ذلك، إلا بعد تصدير الفتوى الشرعية بخصوص هذا الأمر، فإذا لم يتوفر ذلك، اعتبر هذا العمل محرماً شرعاً، ولا يتم، لمنافاته لأصول الشريعة الإسلامية، وأهدافها. وتتم الفتوى بعد دراسة مختلف جوانب الموضوع الطبية منها، والإنسانية، للحيلولة دون الوقوع في الخطأ (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٢٢٣ ــ ٢٢٤) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٤).

و يشترط على الحكيم مهذب الدين الإقامة الدائمة في القاهرة، وعدم الإقبال على الأسفار حيث تتطلب المهنة الاستقرار، للقيام بمهمتي العلاج، والتدريس، بالبيمارستان المنصوري.

و يعتبر هذا الجمع بين الوظيفتين تشريفاً له، لما يتمتع به من خلق وعلم، وتكليفا، لما يتميز به من خبرة ومهارة. ولذا فإنه مأمول منه العمل بأصول ومسئوليات هذين المنصبين (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٢٢٤) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٤ ــ ٢٥). يستفاد من ذلك أن البيمارستان المنصوري، ومدرسة الطب، يكونان جهازاً متكاملا، لخدمة مختلف فئات الشعب، وطبقاته، وأن الغرض الأول من إنشائهما توفير الصحة لهذا الشعب. ولكي يحقق هذا الجهاز ما هو مطلوب منه من خدمات جليلة في ميدان الرعاية الصحية. وعلم الطب، اعتنى بتوظيف مدرسي الطب الأكفاء للنهوض بهذه الوظيفة على خير وجه، سواء في مجال الممارسة، أو الدرس. ولكي يتحقق الهدف من بناء هذا البيمارستان، وإنشاء هذه المدرسة لابد للقائم على وظيفة التدريس هذه، بل وظيفة رئاسة مدرسة الطب العمل من أجل دراسة كل ما هو جديد في ميدان الطب، ثم تطبيق هذا العلم بممارسته في شفاء المرضى من الأسقام، ولكي تعم الفائدة، لابد من نقل هذا العلم والجديد فيه إلى طلاب مدرسة الطب هذه، لأنهم عدة الغد في القيام بوظائف البيمارستان.

وقد كان من أشهر الأطباء الذين مارسوا الطب في البيمارستان المنصوري، أحمد بن يوسف الصفدي، الذي كان طبيب الناصر محمد، كما «كان طبيبا بالمارستان» (ابن حجر، ١٩٦٦، ج ١: ٣٦٢) (ابن تغرى، ١٩٢٩ــ ١٩٥٦، ج ٩: ٣١٧ــ ٣١٨) ومات سنة ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٨م. وكذلك محمد بن إبراهيم السنجاري، الذي تقدم في معرفة الطب، وكان ماهرا في تركيب الدواء المناسب لكل حالة فيبرأ المريض. وعندما رتب في البيمارستان ألزم الناظر ألا يشتري شيئا إلا بعد عرضه عليه، وأخذ موافقته. وله عدة كتب من أهمها «اللبيب عند عينة الطبيب». وتوفي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م (ابن تغرى، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦، ج ٣: ٣٦٦ ــ ٣٦٧).

التنظيم الإداري والمالي

ومن جانب آخر، رتب في البيمارستان من المباشرين، والأمناء، وسائر الموظفين ما يكفي للقيام بجميع وظائفه. وكانت وظيفة أمناء المخازن شراء جميع ما يحتاج إليه البيمارستان من الأصناف، وتسجيل كافة أنواع المشتروات، من غذاء ودواء. ثم يتم تحويل جميع الفواتير إلى خزينة الصادر التي كان اختصاصها تسديد تلك الفواتير. كذلك كان من عمل «الإدارة المالية» صرف مرتبات الموظفين، والمباشرين، وفق قوائم موثقة أولا، ثم موقعة من قبل

«الناظر» على أوقاف البيمارستان. ويقوم المحاسبون بصرف المرتبات، والاستحقاقات، كما هي مبينة في تلك الشهادات، ثم يعمل على تدوينها في السجلات الخاصة بالمصاريف، والايرادات، من حساب البيمارستان (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٢، ٣٦٦) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨:٩) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ١٠٠٠) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٣٩ــ ١٤١). ونلاحظ أن وثيقة وقف السلطان قلاون على مصالح البيمارستان المنصوري نصت على عدم توظيف أي من النصارى، أو اليهود، في وظائف البيمارستان، بل يجب أن يكون كل من يعمل فيه مسلماً متديناً، ملتزماً بأصول العقيدة السمحاء (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٣) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤١، ١٤٦).

أما المباشرون في «الإدارة المالية» أو بمعنى اخر المحاسبون، فمهمتهم مراجعة الأوقاف المسجلة، وتصنيف المستثمر منها، والمعطل، وتحصيل الأموال. ومحاسبة المستأجرين في مختلف أماكن الوقف. ثم صرف هذه الأموال جميعها بمقتضى أوامر مباشري الإدارة، والإشراف على العمارة، وعمل الاستحقاق، ولا يحق لهم التصرف في غير ذلك (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٩) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧) (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ١: ١٠٠٠). أما الموظفون في الإدارة فيحق لهم الصرف من الميزانية المخصصة لجهتهم، وفق فواتير رسمية تحول إلى الخزينة للسداد (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ١٠٠٠).

أما القائمون على العمارة والصيانة، فقد كان اختصاصهم، شراء المواد اللازمة للتصليحات الضرورية، والترميمات المطلوبة، واستخدام الصناع، والعمال، ومراقبة مختلف الأبنية الموقوفة، فإن أنجز كل شيء، أحيلت جميع الفواتير إلى «ناظر الوقف» كي يقوم بسدادها إلى مستحقيها، حيث كان هذا الإجراء يتم بشكل دوري كل شهر (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٢) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٧) (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ١: ١٠٠٠) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٠). وكان «للناظر» و «المستوفى» أحقية مراجعة كافة تلك الحسابات والمصروفات، مع التدقيق في مختلف الرواتب اليومية، والشهرية والسنوية، بحيث يتم كل شيء بدقة، وأمانة (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج٨: ٩) (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ١: ١٠٠٠). وإذا زاد ريع الأوقاف المخصصة لمصارف البيمارستان عن الحاجة، والصرف، فإن الزيادة توزع كصدقة على الفقراء والمساكين المسلمين، أينما كانوا، وحيثما وجدوا (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٦٨) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٤٧).

دراسة الطب في البيمارستان

خصص في البيمارستان مكان لتدريس الطب، حيث يقوم رئيس الأطباء بتدريس طلاب

الطب (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١: ٣٠٧) (المقريزي، ١٨٥٣، ج ٢: ٤٠٦) (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ١: ٩٩٩). ولعل هذا الوضع يشبه إلى حد كبير وضع كليات الطب الموجودة في المستشفيات الحديثة اليوم، حيث تتاح لطلاب الطب ممارسة الطب السريري (الاكلينيكي)، في مستشفى الجامعة University Hospital. وقد حرص الواقف، المنصور قلاون، في وثيقة الوقف على توضيح أهمية تدريس الطب بالبيمارستان، إذ اشترط: «الانشغال فيه بعلم الطب، والاشتغال به» (ابن حبيب، ١٩٧٧، ج ١:٣٥٩) (عيسى بك، ١٩٨١: ١٣٨).

وقد حفظ لنا التاريخ نسخة (ابن عبد الظاهر، ١٩٦١: ٢٢٨ ــ ٢٣٠) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٥ ــ ٢٧) (القلقشندي، ١٩١٣ ــ ١٩٢٢، ج ١١: ٢٥٣ــ ٢٥٦) من تقليد الحكيم مهذب الدين، وظيفة التدريس في البيمارستان المنصوري، تتضمن الآتي:

أولا: الحمد لله الذي هيأ لإنشاء البيمارستان، بأفضل المواد، وأحسن العمال، و يسّر لاختيار علماء الطب، والفقه، والحديث، والقرآن.

ثانيا: إن الهدف من إنشاء البيمارستان هو تحقيق الخير من خلال خدمة المرضى، وعلاجهم. ولكي يستمر في العمل، والفائدة أوقفت عليه الأوقاف الكثيرة والجليلة، مع شرط أن تشمل منفعته جميع الناس، لا فرق بين أمير أو مأمور، سيّد أو مسود، غنى أو فقير، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

ثالثا: إنه في سبيل استمرارية البيمارستان في العطاء، وتقديم أفضل الطرق في العلاج، وأحسن الأساليب في الدواء، ألحقت به مدرسة لتعليم الطب لفائدة الطبيب، وطالب علم الطب، وعين الحكيم مهذب الدين على رأس هذه المدرسة (ابن عبد الظاهر، ١٩٦١: ٢٢٨ ــ ٢٢٩) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٥ ــ ٢٦).وقد اختير الحكيم مهذب الدين لعلمه الواسع، وخبرته المعروفة، من أجل أن يؤدي مسئولية تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري، على أكمل وجه، ليتحقق بذلك ما كان يطمح إليه المنصور قلاون من مقاصد وهي:

١) بذل الجهد المخلص في شفاء المرضى من أسقامهم، وآلامهم.

٢) الإشراف على طلبة الطب، وتقريبهم من المهنة التي يرغبونها.

٣) إعطاء الطلبة كل ما يعرف من علم، ومعرفة، من أجل تخريج مجموعة من الأطباء المختصين في الجراحة، والباطنية، والعيون، والعظام. وكذلك مجموعة من الصيادلة، لتحضير الدواء اللازم لكل داء. و يغرس فيهم روح البحث، والسعي وراء الجديد في العلاج، والدواء. فإن اشتهروا بعد ذلك مستقبلا، وذاع صيتهم، فهذا تشريف له، لارتباطهم باسمه، وتفوقهم بجهده (ابن عبدالظاهر، ١٩٦١: ٢٢٩ ــ ٢٣٠) (ابن الفرات، ١٩٣٩، ج ٨: ٢٦ ــ ٢٧). ومن الذين درسوا الطب، في البيمارستان

المنصوري، محمد بن محمد بن عبدالرحمن التونسي، الذي اشتهر بعلمه الغزير، وكان يداوم على قراءة كتاب «الشفاء» لابن سينا كل ليلة، وتوفي سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م (ابن حجر، ١٩٦٦، ج ٤: ٢٩٩ ــ ٣٠٢) (ابن تغرى، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦، ج ٩: ٣١٥).

وكذلك محمد بن علي بن عبد الكافي القاهري، الذي «تميز في الطب، وعالج، وتدرب به جماعة» (السخاوي، ١٩٣٤ــ ١٩٣٦، ج ٨: ١٩٠)، وله في الطب كتاب يسمى «الزبد». وقد «كان أحد الأطباء بالبيمارستان، وبخدمة السلطان» (السخاوي، ١٩٣٤ ــ ١٩٣٦، ج ٨: ١٩١). وتوفي سنة ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥م.

البيمارستان المنصوري في القرن الثامن الهجري

في عام ٧٠٧ هـ/١٣٠٧م استقر شهاب الدين أحمد بن علي بن عبادة[٢٢] في «نظر البيمارستان المنصوري» (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٣٧). ولعل السبب في اختياره لهذا المنصب هو نزاهته، وأخلاقه العالية، وما عرف عنه من حرمة قوية، وما تمتع به من خبرة في الشئون المالية (ابن حجر، ١٩٦٦، ج ١: ٢٢٣).

ومن اللافت للنظر أنه في سنة ٧١١هـ/١٣١١م وُلّي الناصر محمد بن قلاون[٢٣] كريم الدين أكرم عبدالكريم الكبير[٢٤] «وكالة الخاص السلطاني»[٢٥]. وكانت أول مهمة كلفه بها، أن يسدد ثمن جواهر وغيرها اشتراها الناصر من بعض تجار الفرنج، وبلغ ثمنها ستة عشر الف دينار خلال ثلاثة أيام إذ كان أولئك التجار على أهبة سفر، فاحتار كريم الدين الكبير لعدم وجود المال عنده، واستشار بعض كبار رجال الدولة فحسنوا له «أخذ حاصل المارستان المنصوري» (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج٢: ١٠٣). ولكن كريم الدين ناظر الخاص لم يقدم على ذلك، لأنه تمكن من تدبير المبلغ، دون أن يمد يده إلى أموال البيمارستان (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ١٠٣ ــ ١٠٤)·إلا أن الذي يهمنا من هذا الموضوع، هو تفكير بعض رجال الدولة في الاستيلاء على أموال البيمارستان، التي كانت ــ في الحقيقة ــ ريع الأوقاف المقررة للصرف على مختلف احتياجات البيمارستان، فكيف يجرؤ بعض القائمين على المصالح السلطانية الشخصية على التفكير في سلب تلك الأموال الخيرية من أجل بعض الجواهر لمتعة السلطان، ورغباته الخاصة. ألم يوجد عند هؤلاء الرجال الرادع الديني، أو السلوك الأخلاقي، الذي يحول حتى من مجرد التفكير في الاستيلاء على الأموال التي كانت موقوفة للصرف على المرضى والفقراء؟ وهل وصلت الرغبة في إرضاء السلطان، أو في دفع غضبه، درجة تفوق الحرص على عدم التطاول على ريع البيمارستان المنصوري؟

والحق أن اهتمام رجال الدولة بالبيمارستان المنصوري، من حيث العناية والرعاية، لم

يفتر، ففي عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م تعرض ربع[٢٦] من أوقاف البيمارستان المنصوري بخط الشوابين من القاهرة لحريق كبير، فقام الأمراء على إطفائه، واستمروا على ذلك، حتى خمدت النار في اليوم التالي (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٢٢٠) (ابن تغري، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦، ج ٩: ٦٣ ــ ٦٤). ولاشك في أن هذا الموقف يدل على عناية بعض الأمراء، بالاملاك الموقوفة للصرف على البيمارستان المنصوري. ومن جانب اخر نجد أن الناصر محمداً تولى البيمارستان المنصوري بالعمارة، والاصلاح. ففي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، فوض الامير جمال الدين آقوش الأشرفي[٢٧]، ناظر البيمارستان المنصوري، بالعمل على إصلاح البيمارستان. فرسم الأمير آقوش أن لا يترك أحد من المرضى بالبيمارستان، ومن عوفي أو أبل، يخرج منه، فخلت بذلك الأواوين من المرضى، وكذلك القاعات، ولم يبق بالبيمارستان، إلا الممرورون، وبعض المرضى. وبدأت عمليات الإصلاح، والترميم، فأصلحت الجدران، وجدد البياض، والأدهان، ونحت ظاهر القبة، والمدرسة، والمأذنة بالأزاميل، واستمرت العمارة شهورا، حتى قاربت على الانتهاء، فصدر الإذن بتنزيل المرضى، وكان جملة ما صرف على هذه العمارة تقارب ستين الف دينار (النويري، ج ٣١، حوادث ٧٢٦هـ). كما كان من بين شخصيات تلك الحقبة من كانت له عناية خاصة بالبيمارستان المنصوري مثل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي، نائب الكرك، الذي أنشأ سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م قاعة بالبيمارستان، كما نحت جدران البيمارستان بالحجر كلها داخلا، وخارجاً، وطرز الطراز الذهب من الخارج حتى صار كأنه جديد. كما عمل خيمة يزيد طولها على مائة ذراع، وركبها لتستر على مقاعد الأقفاص، وتظلل على أهلها من الحر. ونقل الحوض من جانب باب البيمارستان، لكثرة تأذي الناس برائحة النتن، وعمل موضعه سبيل ماء عذب لشرب الناس. ولم يستخدم الأمير آقوش في عمل أي من ذلك شيئا من أموال الوقف (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٢٧٣ ــ ٢٧٤).

ويذكر الرحالة البلوي (البلوي، مخطوطة رقم ٢٢٨٦: ورقة ٣٤ب)، أثناء زيارته لمصر في عهد الناصر محمد بن قلاون، سنة ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٦م عن البيمارستان المنصوري: «أخبرنا الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي[٢٨] أنه يكحل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين إليه، والناقهين الخارجين أربعة ألاف نفس، وتارات يزيدون وينقصون، ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطى إحسانا إليه، وانعاماً عليه، كسوة للباسه، ودراهم لنفقته. وأما ما يعالج به المرضى فيه من قناطير الأشربة المقطرة، والأكحال الرقيقة، الطيبة، التي تسحق فيها دنانير الذهب الإبريز، وفصوص الياقوت النفيس، وأنواع اللؤلؤ الثمين، فشيء يهول السماع، ويعم ذلك الجمع، إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطير، والأغنام، على اختلافها وتباين أصنافها، مع ما يحتاج اليه كل واحد ممن يوافيه، فيه لفرشه، وعرشه، من غطاء، ووطاء، ومشموم، ومزرور، وشبه ذلك، مما هو معد على أكمله هناك، وما ليس مثله إلا

في منزل أمير، وخليفة. وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين، والشهود المبرزين، والنظار العارفين، والخدام المتصرفين، كل من هو في معالجته موثوق بعدالته، مسلم له في معرفته، غير مقصر في تصرفه، وخدمته. ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلدا مستقلا بنفسه، أو في مبانيه الرائقة، وصناعته الفائقة، وتواريخه المذهبة، ونقوشه العجيبة المنتخبة، التي ترفل في ملابس الاعجاب، وتسحر العقول، والألباب، ما يفتن النفوس، و يكسف أنواع البدور والشموس، وتعجز عن وصف بعضها خطأ الأقلام في ساحة الطروس، فما وقعت عين على مثله، ولا سمعت أذن بشبهه وشكله» (البلوي، مخطوط رقم ٢٢٨٦: ورقة ٣٥ ب).

وقد استمر البيمارستان المنصوري محط اهتمام الناصر محمد. ومما يؤكد ذلك انه في سنة ٧٣٧ هـ/١٣٣٧م كثر ضبط الأمير علم الدين سنجر الجاولي(٢٩)، لأوقاف البيمارستان، وكان يتردد فيما يصرف منه للصدقات، فأنكر السلطان الناصر عليه ذلك، وقال له: «المارستان كله صدقة، ولم يقبل له عذراً» (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٤١٣). وهذا يدل على حرص الناصر محمد على أن يؤدي البيمارستان وظائفه الاجتماعية كاملة، سواء في تقديم الوقاية الصحية، والعلاج الطبي، أو فيما يوزع صدقة من ريع الأوقاف المرصدة للصرف على البيمارستان واحتياجاته(٣٠).

وعلى ذلك نلاحظ من خلال دراستنا لهذه الحقبة أن من تولى فيها «نظر البيمارستان»، كان يتميز ــ في العادة ــ بالأخلاق العالية، والعلم الوفير، والشخصية القوية، مثل فخر الدين عثمان بن إبراهيم التركماني(٣١)، الذي توفي أثناء ولايته «النظر» بالبيمارستان المنصوري (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٣٤٠ ــ ٣٤١). ولكن من ناحية أخرى نلاحظ أنه في عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م حدث أن أخذ شرف الدين عبدالوهاب النشو(٣٢) «ناظر الخاص» عدة مخازن للتجار. فكان منها مخزن فيه حديد قوّمه بخمسين ألف درهم على البيمارستان. فأبى الأمير سنجر الجاولي «ناظر البيمارستان» أن يأخذه، فألزمه الناصر محمد بأخذه للوقف، فأخذه، ودفع ثمنه (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٤٢٠).ولعل التفسير الأرجح في موقف الناصر محمد هذا أنه لم يجد ضرراً في أن يشتري «ناظر البيمارستان» كمية الحديد هذه من حساب حاصل البيمارستان، إذ كانت عمليات الإصلاح، والترميم مستمرة في أجنحة البيمارستان، وأوقافه، ولابد أنه سيحتاج لكمية الحديد هذه في أعمال البناء عاجلا أم أجلا. وقد انفرد السلطان المملوكي دائما بحق تعيين «ناظر البيمارستان»، وكذلك لا يعزل، إلا بأمر منه، ولا يجرؤ «الناظر» ــ عند حدوث خلاف بينه و بين السلطان ــ على عزل نفسه من «نظر البيمارستان» (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٤٤٩).

ومن اللافت للنظر أنه في عام ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٩ م طلب شرف الدين النشو «المال الحاصل

بالمارستان المنصوري، فقام الأمير سنجر الجاولي في ذلك، حتى أن ابتيع للوقف من أراضي بهتيت(٣٣) من الضواحي مائتان وخمسون فداناً، بأربعمائة ألف درهم، وحملت إلى النشو» (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٤٦٤).وعلى ذلك فان النشو بما عرف عنه من مساوىء كثيرة لم يتردد في التطاول على أموال البيمارستان، في سبيل تحقيق المصالح السلطانية الخاصة، ولعل هذا الفعل لا يزيد عن كونه صورة من صور الظلم التي أتاها «ناظر الخاص» هذا، خلال سنوات ولايته القصيرة، ضد مختلف الطبقات(٣٤)، وجميع المراكز، والمؤسسات. وعندما توفي الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤١م كُفِّن من البيمارستان المنصوري (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٥٤٦) (ابن تغرى، ١٩٢٩ــ ١٩٥٦، ج٢: ١٦٥). وقد تولى سنجر الجاولي ــ ناظر البيمارستان ــ غسل الناصر محمد ودفنه (ابن حجر، ١٩٦٦، ج ٢: ٢٦٧) ولم يستمر وجود سنجر الجاولي في «نظر البيمارستان»، ففي صفر سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م خلع على الأمير علم الدين سنجر الجاولي، واستقر في نيابة حماة (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٢٠) (ابن تغرى، ١٩٢٩ــ ١٩٥٦، ج ١٠: ٧٩)، واستقر مكانه في «نظر البيمارستان» «الأمير جنكلي»(٣٥) بن البابا (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٢١) (ابن تغرى، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦، ج ١٠: ٨٠).

ويسترعي انتباهنا ضمن حوادث سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م وقوع منازعة بين الأمير جنكلي بن البابا، وبين الضياء (٣٦) المحتسب، بسبب وقف السلطان المنصور أبي بكر (٣٧) على القبة المنصورية، فإن الأمير جنكلي أراد إضافته إلى البيمارستان، وصرف متحصله في مصارف البيمارستان. فلم يوافقه الضياء، واحتج بأن لهذا الوقف مصرفاً عينه واقفه لقراء، وخدام، ووافقه القضاة على ذلك. فاستقر وقف المنصور أبي بكر على ما شرطه لطلبة العلم، والفقراء، وغيرهم (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٢٣ ــ ٦٢٤).ويبدو أن انشغال الأمير جنكلي بن البابا في قضاء بعض مصالح الدولة (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٤٥ ــ ٦٤٦)، كان سببا في تولي الضياء يوسف بن أبي بكر وظيفة «نظر البيمارستان». ولكن يظهر أن ذلك كان بصفة مؤقتة، إلى أن يعين شخص آخر بصفة دائمة، ولذا نلاحظ أنه في عام ٧٤٥ هـ/١٣٤٤م عزل الضياء أبو المحاسن يوسف بن أبي بكر بن محمد بن خطيب بيت الأبّار الشامي من «نظر البيمارستان المنصوري» واستقر عوضه علاء الدين علي بن محمد بن الأطروش (٣٨) السقطي (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٧٢). ولكن مصادر التاريخ المملوكي تشير إلى عدم شعبية علاء الدين علي بن الأطروش بين الناس «لجهله بالأمور الشرعية» (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٥٣). ولذا فإنه عزل بعد سنتين فقط. وخلع السلطان شعبان (٣٩)، على الأمير أرغون العلائي (٤٠)، واستقر في «نظر البيمارستان» ابتداء من محرم سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، فباشر وظيفته بهمة، ونشاط، وأعاد جماعة ممن قطعهم ابن

الأطروش. كما أنشأ بجوار باب البيمارستان سبيل ماء، «ومكتب سبيل» لقراءة أيتام المسلمين القرآن الكريم، ووقف عليه وقفاً بناحية من الضواحي (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٧٠٠) (ابن تغرى، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦، ج ١٠: ١٢٦). ولعل السؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو ما سبب تعيين رجل معروف بجهله بالأمور الشرعية في وظيفة «نظر البيمارستان»؟ ولعل الجواب يكمن في علاقة هذه الشخصية بكبار رجال الدولة، فقد كان علي بن الأطروش على علاقة طيبة بالأمير أرغون العلائي (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٥٣). كما يبدو واضحا أن بعض رجال الدولة كانوا لا يتحرجون عن التوسط لبعض الجهلاء، وتعيينهم في المناصب الحساسة، والخطيرة في الدولة مثل، وظيفة «الحسبة» (المقريزي، ١٩٣٩ــ ١٩٧١، ج ٢: ٦٥٣، ٧٢٩، ٧٣٨، ٨٣٥ ــ ٨٣٦) و «نظر البيمارستان المنصوري»، وغيرهما من الوظائف التي لها علاقة مباشرة بحياة الناس، ومصالحهم.

و يشير المقريزي إلى أنه في يوم الأحد الرابع عشر من محرم سنة ٧٥٢هـ/ الحادي عشر من آذار ــ مارس سنة ١٣٥١م، خلع على الضياء يوسف الشامي، وأعيد إلى «حسبة» القاهرة، و «نظر البيمارستان» عوضا عن ابن الأطروش، بسفارة النائب الأمير بيبغا ططر حارس الطير(٤١). فعرض الضياء حواصل البيمارستان، فلم يجد بها شيئا، وكتب بذلك أوراقاً، وأوقف الأمير بيبغا ططر، النائب، عليها، فنزل الأمير ططر معه إلى البيمارستان، واستدعى القضاة وأرباب الوظائف بالبيمارستان، وأحضر ابن الأطروش، وطلب كتاب الوقف، وقرأه، حتى وصل فيه القارىء إلى قوله عن «الناظر»، التعمم، و يكون عارفاً بالحساب، وأمور الكتابة. فقال الضياء لابن الأطروش: «قد سمعت ما شرطه الواقف فيك، وأنت عامي، مشهور ببيع الخرائط، لا تدري شيئا مما شرطه الواقف» (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٨٣٥). وناوله ورقة حساب ليقرأها فاعترف ابن الأطروش أنه لا يدري بالحساب، وأنه عاجز عن المباشرة، وألزم نفسه ألا يعود إليها أبدا، باشهاد كتب فيه قضاة القضاة، ونوابهم، يتضمن قوادح شنيعة. ثم قام النائب لكشف أحوال المرضى، فوجد فرشهم قد تلفت، ولها ثلاث سنين لم تغير، فعالج النائب أسباب الضرر، وانصرف (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٢: ٨٣٥ ــ ٨٣٦).

إذن فهذه إشارة واضحة فى مصادر التاريخ المملوكي إلى أنه، كان يحدث أحيانا وصول بعض الجهلاء إلى المناصب المهمة، مما يعيق تحقيق المنافع الاجتماعية الموجودة في هذه المراكز الخيرية، بل قد يؤدي سوء الحال إلى تعطيل القيام بالمساعدات الصغيرة، الأمر الذي لابد أن

يسيء إلى الهدف الخيري لهذه المؤسسات الوقفية. ومن المؤكد أن من نتائج سوء الإدارة في مجالات الوقف المتعددة التلاعب في الحسابات، وسوء تدبير الفوائد المالية، وعدم القدرة على استثمار ريع مصادر الوقف ضمن وسائل مدروسة ومخطط لها، من أجل انجاز الغرض الرئيسي للاستثمار، ألا وهو الربح الجيد، والمنفعة الشاملة. ونتيجة لذلك تشل جميع مظاهر العون الخيري، والإحسان الاجتماعي، والمساعدة المادية، مما يؤدي إلى انتفاء الغرض الجوهري من وجود الأوقاف في سد بعض متطلبات الرزق للمحتاجين. ومن هنا تأتي أهمية تولي مثل هذا المنصب الحيوي شخصية مؤهلة فكريا، وإدارياً، وعلمياً، لكي يصبح بالإمكان القيام بواجبات الوقف، ومسئولياته، بجدارة، وعلم، بحيث يتيسر تحقيق عدد من المقاصد المرجوة، من خلال الإشراف المنظم، والدقيق، على جميع منجزات الوقف.

ومن جانب آخر فقد وجد من رجال الدولة من كان غيوراً على مصالح المؤسسات الخيرية، وأوقافها، مثل الأمير صرغتمش (٤٢)، الذي خلع عليه في عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، واستقر في «نظر البيمارستان المنصوري»، «وكان قد تعطل نظره من متحدث تركي، وانفرد بالكلام فيه القاضي علاء الدين علي بن الأطروش وفسد حال وقفه، فإنه كان يكثر من مهاداة أمراء الدولة، ومدبريها، و يهمل عمارة رباعه حتى تشعثت. فنزل إليه الأمير صرغتمش، ودار فيه على المرضى، فساءه ما رأى من ضياعهم، وقلة العناية بهم، فاستدعى القاضي ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد بن خطيب بيت الآبار، وعرض عليه التحدث في المارستان كما كان، عوضا عن ابن الأطروش، فامتنع من ذلك، فما زال به حتى أجاب. وركبا إلى أوقاف المارستان بالمهندسين، لكشف ما يحتاج إليه من العمارة، فكتب تقدير المصروف ثلثمائة ألف درهم، فرسم بالشروع في العمارة، فعمرت الأوقاف حتى ترقع ما فسد منها، ونودي بحماية من سكن فيها، فزاد ريع الوقف في الشهر نحو أربعين ألف درهم، ومنع من يتعرض إليهم، وانصلحت أحوال المرضى أيضا (المقريزي، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج ٣: ٧ ــ ٨). ولكن ذلك الوضع لم يستقر طويلا. ففي عام ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨م، عندما انهار نفوذ الأمير صرغتمش «قبض على القاضي ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد» «ناظر المارستان»، وأهين، وأركب على حمار، ثم نفي بعد ضربه بالمقارع عريا، ومصادرته.. وعمل الأمير عز الدين أزدمر(٤٣) الخازن دار أميرا كبيراً، مكان صرغتمش المقريزي: (المقريزي: ١٩٣٩ ــ ١٩٧١، ج٣: ٤٢ ــ ٤٣). ثم تولى «نظر البيمارستان المنصوري» (المقريزي: ١٩٣٩ ــ ١٩٧١ ،ج٣: ٤٣).

ومن الجدير بالذكر أنه توالى على وظيفة «نظر البيمارستان» في الفترة ما بين

٧٦٣هـ/١٣٦١م حتى ٨٠٠هـ/١٣٩٨م تسعة أو أكثر من كبار الأمراء المماليك (المقريزي، ١٩٣٩ — ١٩٧١، ج ٣: ٧٣، ١٥٧، ٣٠٨، ٣١٨، ٦٠٦، ٦٦٠، ٧٦٦، ٨٦٢، ٨٩٧). ويعتبر هذا العدد كبيراً بالقياس على نصف القرن السابق، ولعل ذلك يعود إلى عدم استقرار الأوضاع السياسية خلال هذه الحقبة، فتدخلت عوامل كثيرة في عملية تولى هذه الوظيفة المهمة مثل العلاقات الشخصية، والروابط الأسرية، والمصالح المشتركة، وتغير مراكز النفوذ من طائفة إلى أخرى. بينما غابت عن ميدان التنافس مبادىء المقدرة، والكفاءة، والاستحقاق. وأصبحت وظيفة «نظر البيمارستان» منصباً سياسياً وعسكرياً أكثر منه اجتماعيا، فتبوأه أصحاب النفوذ، وغاب عنه أصحاب الجدارة.

ولا يسعنا في ختام هذه الدراسة إلا أن نؤكد تبني المنصور قلاون لحديث رسول الله (صلعم) إذ يقول «ما أنزل الله داء إلا له دواء»، ولذا اجتهد في إقامة هذا المركز الطبي الفريد الذي يماثل في تخطيطه، وتجهيزاته، وأطبائه، المستشفيات الموجودة في العصر الحديث. لقد بذل في سبيل تحقيق هذه الرغبة في فعل الخير المال، والعقار الثابت، والأرض المثمرة، وثبت كل هذا بوثائق وقف شرعية، لضمان الاستمرارية، في الخدمة الطبية، والصحة الوقائية، وصدقة الفقير. ثم وضع أولاده من بعده في موضع المسئولية والاهتمام نحو هذه المؤسسة الخيرية، من خلال توكيلهم شخصيا في وثائق الوقف المعتمدة بوراثة «النظر في البيمارستان» من بعده. ولاشك أن انتظام العمل في البيمارستان المنصوري لقرون تلت يضيف صفحة جديدة إلى صفحات الإنجازات الحضارية التي أخذ المماليك على عاتقهم مهمة القيام بها في حقل خدمة الحضارة العربية الإسلامية.

الهوامش

١) السلطان المنصور قلاون الصالحي النجمي. كان من أكبر الأمراء زمن الظاهر بيبرس. تولى حكم سلطنة المماليك سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩م. وهزم التتار في حمص. وفتح طرابلس وحصن المرقب. بنى في القاهرة مدرسة وبيمارستانا للمرضى. توفي سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠م. انظر: فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن أحمد الكتبي، ج ٣ ص ٢٠٣ — ٢٠٤، انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد جـ ٥، ص ٤٠٩ — ٤١٠.

٢) المارستان — ويقال البيمرستان والبيمارستان أيضا — مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهو لفظ فارسي مركب من بيمار أي مريض، وستان أي محل، ويقال له بالتركية «خسته خانه» أي محل المرضى، ويطلق البيمارستان على المحل المعد لإقامة المجانين أيضا. انظر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، لابن عبدالظاهر، ص ٥٥ هامش ٥، انظر: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، جـ ١، ص ٧١٦، هامش ٦.

٣) أنظر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبدالظاهر ص ٥٥ — ٥٦، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لأبن حبيب، الجزء الأول، ص ٣٥٥، تاريخ الدول والملوك لابن الفرات، جـ ٧، ص ٢٧٨، المواعظ

والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، ج ٢، ص ٤٠٦. صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، جـ ٣، ص ٣٦٥، جـ ٤، ص ٣٨، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٧١٦، ٧١٧ و ٩٩٧ ـ ٩٩٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٧، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ لابن تغرى بردى، وكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، جـ ١، ص ٣٥٣.

٤) أنظر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبدالظاهر، ص ٥٦، صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، جـ ٣، ص ٣٦٦، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، جـ ٢، ص ٤٠٦، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، جـ ١، ص ٧١٦ ـ ٧١٧، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ٧، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧، بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، جـ ١، ص ٣٥٣.

٥) أنظر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبدالظاهر، ص ٥٥، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب، جـ ١، ص ٣٣٠، صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، جـ ٤، ص ٣٨، أنظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، جـ ٢، ص ٤٠٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ٧، ص ٣٢٦، بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، جـ ١، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

٦) أيبك الصالحي الأفرم الكبير بن عبدالله الصالحي: كان «أمير جندار السلطان الظاهر، والسعيد، والمنصور قلاون. فلما تسلطن الأشرف خليل حبسه. وبعد قتل الأشرف خليل أخرجه الناصر محمد، وأعاده إلى مكانته، ثم استقر أيام العادل كتبغا على حاله إلى أن مات سنة ٦٩٥ هـ. وكان كثير الخير والإحسان وعَمَّرَ المدارس، والمساجد والجوامع، ووقف عليها الأوقاف. وكان دَيِّنا، خيراً، كثير المعروف. وكان يدخل عليه من أملاكه وضماناته وإقطاعاته كل يوم ألف دينار خارج عن الغلال. وكان قليل الظلم، كثير الخير، وغالب ما حصله من نوع المتاجر والمزروعات والمستأجرات. أنظر تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب، جـ ١، ص ١٩١، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ٨، ص ٨٠ ـ ٨١، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي جـ ١، ص ٧٤٩، ٧٥٢، ٧٥٥، ٧٦٣، ٧٨٥، ٧٩٢، ٨٠٣، ٨٠٧، ٩٣٠، ١٠٢٤.

٧) سنجر بن عبدالله الشجاعي المنصوري الأمير علم الدين: كان من مماليك المنصور قلاون، وترقى حتى ولى شد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية في أوائل حكم الناصر محمد. وساءت سيرته، وكثر ظلمه. ثم ولى نيابة دمشق، فتلطف بأهلها. وقل شره، ودام بها سنين إلى أن عزل بالأمير عز الدين ايبك الحموي، وقدم إلى القاهرة. وكان موكبه يضاهي موكب السلطان من التجمل، والأبهة. ومع ظلمه كان له ميل لأهل العلم، وتعظيم الإسلام. وكان مشد عمارة البيمارستان المنصوري، وكان ظالما، جسورا، فكرهه الناس لكثرة ظلمه، وفرحوا بقتله. وتوفي سنة ٦٩٣هـ. أنظر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب، جـ ١، ص ٣٠١، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ٨، ص ٥١ ـ ٥٢.

٨) أنظر تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر، ص ٥٦، وانظر: تاريخ الدول والملوك لابن الفرات، جـ ٧، ص ٢٧٨، صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، جـ ٣، ص ٢٦٦، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، جـ ٢، ص ٤٠٦، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، جـ ١، ص ٩٩٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ٧، ٣٢٦، ٣٢٧، جـ ٨، ص ٥١، بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، جـ ١، ص ٣٥٣.

٩) محمد بن علي بن وهب بن مطيع، ابن دقيق العيد المصري الشافعي، تقي الدين: كان أحد الأعلام، وقاضي القضاة. ولد سنة ٦٢٥هـ. له عدد من التصانيف البديعة مثل «الإمام»، «الإلمام»، «علوم الحديث». وكان إماما، متفننا، محدثا، جوادا، فقيها، مدققا، أصوليا، ذكيا. كان محبا للعلم والمطالعة، وقليل الكلام. وكان سمحا، شديد التدين. وله عدة قصائد. وتوفي سنة ٧٠٢هـ. أنظر فوات الوفيات والذيل عليها لابن شاكر، جـ ٣، ص ٤٤٢ ـ ٤٥٠.

١٠) «الشاذروان»: أساس يوثق حول القناطر ونحوها. انظر تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر، ص ٥٦، هامش ٣.

١١) أنظر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبدالظاهر، ص ١٢٩، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب، جـ ١، ص ٣٣٨ ـ ٣٥٨، ٣٨٦ ـ ٣٩٠، وانظر: تاريخ الدول والملوك لابن الفرات، جـ ٨، ص

٩، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، جـ ٢، ص ٤٠٦، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي جـ ١، ص ٩٨٨، كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٧، ص ٣٢٧، بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن آياس، جـ ١، ص ٣٥٣.

١٢) ناظر الوقف: تقع عليه مسئولية العمارة والتنمية والاستثمار، ولكن يجب ألا يكون ذلك على حساب طعام ونفقة اليتيم، حيث يكون الاستثمار بالفائض من المال. ويجب عدم التعثير على أساس زيادة العدد، فالعبرة بالكيف وليس بالكم لكي يتحقق هدف الوقف. ويمكن الاستفادة من إيجار الحوانيت الوقفية المؤجرة في الإصلاح والتعمير. ويجب الالتزام التام بشروط الواقف. أنظر: معيد النعم ومبيد النقم للسبكي، ص ٦٤ ــ ٦٥.

١٣) أنظر تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لابن عبدالظاهر، ص ١٢٦ ــ ١٢٧، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب، جـ ١، ص ٣٠٨، ٣٥٨ ــ ٣٥٩، ٣٦٧، تاريخ الدول والملوك، جـ ٨، ص ٩، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، جـ ٢، ص ٤٠٦، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، جـ ١، ص ٩٩٨.

١٤) وقد نشر هذه الوثيقة لأول مرة الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» دمشق ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م، وقد طبع الكتاب طبعة ثانية مصورة سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. وقد حصل الدكتور أحمد عيسى بك على نسخة من الوثيقة من صديقه الأستاذ المرحوم أحمد زكي باشا، ذلك أن المرحوم إبراهيم باشا نجيب الذي تولى إدارة «ديوان الأوقاف» من ديسمبر سنة ١٩١٢م إلى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٣م عثر في محفوظات الديوان على وقفية السلطان المنصور قلاوون، وطلب الديوان من المرحوم أحمد زكي باشا قراءة الوقفية، فانتهز الفرصة واستنسخ لنفسه نسخة للخزانة الزكية، ولم يسبق لأحد ما قبل ذلك رؤية هذه الوقفية أو معرفة ما فيها. وقد تفضل الأستاذ المرحوم أحمد زكي باشا بإعارتها الى الدكتور أحمد عيسى بك مؤلف كتاب «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» انظر: صفحة ١٣٢ من الكتاب المذكور.

١٥) «الجوامك» أو «جامكيات»: مفردها «جامكية»، وبالفارسية جامكي من جامه تعني ثوب، لباس، ومعناها الأصلي المال المخصص للملابس. ثم أصبحت تعنى عطاء، راتب، أجرة، «جوامك» المدارس أي رواتب المدرسين. ويقال بمعنى أجرى له راتبا أو وظيفة: أعطاه «جامكية»، وعمل له «جامكية»، أو قرر «جامكية». أنظر رينهارت دوزي، «تكملة المعاجم العربية»، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، جـ ٢، ص ١٢٧.

١٦) «المحتسب» واجبه مراقبة الأسواق، ومختلف أنواع الأقوات، والمشروبات. والتدقيق في أسعار البضائع لحماية المشتري. ومراقبة النقود للحيلولة دون الزغل. والإشراف على جميع الصنائع وكانت «الحسبة» وظيفة جليلة، رفيعة الشأن. بالحضرة السلطانية محتسبان: أحدهما بالقاهرة وهو أعظمهما قدرا، وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى كله عدا الاسكندرية التي كان لها محتسبها. كما كان يحق لمحتسب القاهرة الجلوس بدار العدل مع السلطان. أما الثاني فهو محتسب الفسطاط، وله التحدث والتولية بالوجه القبلي بكامله. أنظر: معيد النعيم ومبيد النقم، للسبكي، ص ٦٥ ــ ٦٦، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، جـ ٤، ص ٣٧.

١٧) مفردها كحال: طبيب أمراض العيون

١٨) المجبر: طبيب العظام في ذلك العصر.

١٩) الجرائحيون: هم أطباء الجراحة في ذلك العصر.

٢٠) الشيافات ــ والأشياف أيضا ــ جمع شياف، وهو دواء مسحوق يستعمل للعيون. والشياف أيضا الدواء الذي يجعل قمعا ــ أو تلبيسة، أو فرزجة ــ، لمعالجة أمراض المستقيم. انظر: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، جـ ١، ص ٩٩٩، هامش ٣.

٢١) في الأصل «الدرناقات»، وتعني الدرياق، أي الترياق ــ ويقال الدراق أيضا ــ وهو دواء مركب لدفع السموم. أنظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، جـ ١، ص ٩٩٩، هامش ٤.

٢٢) أحمد بن علي بن عبادة الأنصاري: كان حلبي الأصل، نشأ بالقاهرة، واشتغل بالكتابة، وخدم زين الدين بن مخلوف، فأقامه وكيلا في التحدث على تعلقات تركة المنصور قلاون، فصار يدخل على الناصر محمد وهو صغير، ويقضي مهماته

حتى حظى عنده. فلما تسلطن ولاه نظر البيمارستان في سنة ٧٠٧ هـ ثم سار معه إلى الكرك، وأقام مدة بالقدس إلى أن عاد صحبته بعد خلع المظفر بيبرس الجاشنكير. ففوض إليه وكالته، فعظم شأنه، ونفذ أمره، وقويت حرمته. ولم يكن السلطان يرجع في حقه إلى أحد. وعرض عليه الوزارة، فلم يقبل، وأقطعه قرية بحلب وأخرى بدمشق. ومات على وجاهته سنة ٧١٠ هـ. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأحمد بن علي بن حجر، جـ ١، ص ٢٢٣.

٢٣) محمد بن قلاون: السلطان الناصر، ولد سنة ٦٨٤ هـ، وولي السلطنة عقب قتل أخيه الأشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ، عزل أكثر من مرة. ثم حكم عهداً مستقراً في الفترة ٧٠٩ ــ ٧٤١ هـ. تميز عهده بالاستقرار الاقتصادي، وبنى في سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق، الشيء الكثير جدا. هزم المغول، وفتح رودس. وتوفي سنة ٧٤١هـ. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، جـ ٤، ص ٢٦١ ــ ٢٦٥.

٢٤) أكرم بن هبة الله القبطي كريم الدين الكبير. عمل عند بيبرس الجاشنكير لفترة طويلة. ثم نال رضى الناصر محمد بعد عودته إلى السلطنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م عندما صادر كل ما كان يملكه بيبرس لصالح الناصر محمد. وتولى وظيفة «نظر الخاص»، فأصبح مسئولاً عن كل ما يملكه الناصر من عقار ونقد. واجتهد في إرضاء الناصر محمد، فبلغ منزلة عظيمة عنده حتى صار كبار الأمراء يهادونه ويقصدونه. ونجح كثيرا في استثمار الأموال السلطانية، وبالتالي تحقيق الرفاهية للسلطان الناصر محمد وحريمه. ولكن الناصر لم يلبث أن خشي من سطوته ومكانته، فقبض عليه، ونفاه إلى أسوان حيث شنق سنة ٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤م بعد أن صادر الناصر كل ما كان يملك. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ١، ص ٤٢٩ ــ ٤٣١.

٢٥) «نظر الخاص» وهي وظيفة محدثة، أوجدها الناصر محمد عندما أبطل الوزارة، وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان. وقد صار وكيل الخاص كالوزير لقربه من السلطان، وصار إليه تدبير جلة الأمور وتعيين المباشرين، ولكنه لا يقوم بأي أمر إلا بمراجعة السلطان. أنظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، جـ ٤، ص ٣٠.

٢٦) الرَّبع بفتح الراء المشددة: هو عدة مساكن علوية تحتها حوانيت (دكاكين) ووكائل للتجارة، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بالأجرة الشهرية. أنظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ١٠، ص ٣٠٣، هامش رقم (٣).

٢٧) هو آقش الأشرفي جمال الدين البرناق المعروف بنائب الكرك. كان من مماليك المنصور قلاون ثم ولي عن الأشرف خليل نيابة الكرك نحو العشرين سنة، ثم ولي نيابة دمشق في سنة ٧١١هـ. عَمَّرَ جامعاً بالحسينية. وكان يجلس رأس الميمنة، ويقوم له السلطان الناصر محمد. ثم ولاه الناصر محمد نظر البيمارستان المنصوري فباشره بهابة عظيمة وعَمَّره. ومات بالاسكندرية سنة بضع وثلاثين وسبعمائة هجرية. أنظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ١، ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤.

٢٨) محمد بن عمر بن عثمان الكركي شمس الدين: سمع من ابن الشحنة، وتفقه، وأعاد البادرائية، وولي قضاء الكرك، ومات سنة ٧٦٩ هـ. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٤، ص ٢٢٧.

٢٩) سنجر بن عبدالله الجاولي: ولد سنة ٦٥٣ هـ بآمد. خدم المنصور قلاون، ثم أخرج إلى الكرك، ثم استخدمه كتبغا. وقد كان أول ما ولي نيابة الشوبك. ولم يكن له في سلطنة المظفر حل ولا عقد، فنفعه ذلك، وقدم مع الناصر محمد مصر، وأصبح له نفوذ وسلطة. وكان محبا للعلم خصوصا علم الحديث، وشرح مسند الشافعي شرحا مفصلا. وكان فيه بر ومعروف. وتوفي سنة ٧٤٥هـ. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر جـ ٢، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٨.

٣٠) أنظر كتابنا الموسوم «السلطان الناصر محمد بن قلاون ونظام الوقف في عهده مع تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس» الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨٣.

٣١) عثمان بن إبراهيم بن مصطفى التركماني: ولد سنة ٦٦٠ هـ. وتفقه على مذهب الحنفية حتى شرح الجامع الكبير في عدة مجلدات، وأقراه بالمدرسة المنصورية دروسا. وكان ينظر في أوقافها نيابة عن الناظر التركي. وكان فاضلا، جيل المحاضرة، حسن المذاكرة، فصيح العبارة. مات سنة ٧٣١هـ. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٣، ص ٤٩.

٣٢) عبدالوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين: خدم عند عدد من الأمراء حتى وصل إلى بلاط الناصر محمد بن

قلاون فعينه «ناظر الخاص»، وكان نشيطا في جمع المال للناصر محمد وأكثر من المصادرات للأمراء والتجار والكتاب وأصحاب الأموال. فضج منه الجميع. وأكثر الأمراء فيه الشكوى عند الناصر، فضجر منه، وقبض عليه هو وأهله وصادرهم جميعا. وتوفي سنة ٧٤٠هـ. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٣، ص ٤٢ ــ ٤٤.

٣٣) وردت هذه البلدة مع بلدة الأميرية ضمن الحبس الشرقي، أو الحبس الجيوشي من ضواحي القاهرة، وعبرتها ١٣٫٥٠٠ دينار، وكانت وقفا على البيمارستان المنصوري. أنظر: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، لابن الجيعان، ص ٦، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، جـ ٢، ص ٤٦٤، هامش ٤.

٣٤) أنظر كتابنا المرسوم: «أحوال العامة في حكم المماليك ٦٧٨ ــ ٧٨٤ هـ/ ١٢٧٩ ــ ١٣٨٢م دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية. الكويت، ١٩٨٤.

٣٥) جنكلي بن محمد بن البابا بدر الدين: كان وجيها، جواداً، ذكيا، يحب العلماء، حشم النفس، عفيفا. وكان يخرج لصلاة الصبح فلا يدخل إلى العشاء وكان يميل إلى ابن تيميه. وأول من طلبه من بلده بالقرب من آمد الأشرف خليل، وكتب له منشورا بإقطاع جيد، إلا أنه لم يحضر إلا في أيام الناصر محمد سنة ٧٠٤هـ. وكان آخر زمنه كبير الدولة. وكان ينفع العلماء، والصلحاء، والفقراء. وكان لا يدخل إلا في خير. وعرضت عليه النيابة عدة مرات فرفض. وكان ذو عقل ودين ورئاسة. كما كان حريصا على أداء الزكاة كل سنة. وتوفي سنة ٧٤٦هـ. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٢، ص ٧٦ ــ ٧٧، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغرى بردى، جـ ١٠، ص ١٤٣ ــ ١٤٤.

٣٦) الضياء يوسف بن أبي بكر بن خطيب بيت الآبار جمال الدين. ولد سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩. وتعاني المباشرات، وكان جوادا مطعاما. داره مفتوحة دائما للضيوف. وكان القاضي جلال الدين القزويني يحبه ويكرمه، فلما ولي قضاء القضاة في مصر طلبه، وولاه نظر الصدقات والأيتام. وكان يحضر دار العدل مع القضاة. ولي الحسبه ثم ولي الأوقاف سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م. وفي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م عزله قاضي القضاة عز الدين بن جماعة عن نظر الأوقاف. وكانت له منزلة كبيرة عند الناصر محمد. مات في سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٥، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨.

٣٧) أبو بكر بن محمد بن قلاون: السلطان المنصور، وقد تولى السلطنة بعد أبيه بعهد منه له في مرضه سنة ٧٤١هـ. ثم أخذ في إيشار بعض الأمراء، وقبض على آخرين، ونادم إخوان السوء، فساء سلوكه، وشانت سمعته. فاتفق قوصون مع أيدغمش والمماليك السلطانية فخلعوه من السلطنة، ثم نفوه مع إخوته إلى الصعيد. ثم كتب قوصون إلى عبد المؤمن متولي قوص فقتله، وحمل رأسه سراً إلى قوصون سنة ٧٤٢ هـ. أنظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ١، ص ٤٩٤ ــ ٤٩٥.

٣٨) أنظر ترجمته في: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ص ٦٥٣، ٦٧٢، ٧٠٠، ٧١٧، ٧٢٩، ٧٥٨، ٧٧٢، ٧٧٨، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٥٢، ٨٧٦.

٣٩) السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون: ولي السلطنة سنة ٧٤٦هـ بعد أخيه الصالح إسماعيل بعهد منه إليه، وكان شقيقه. وباشر السلطنة بهابة، فخانه الأمراء، ولكنه أقبل على اللهو والنساء، وصار يبالغ في تحصيل الأموال ويبذرها عليهن، وولع بلعب الحمام، وقادى في التنازل عن الإقطاعات بسهولة. فثار عليه يلبغا اليحياوي نائب دمشق معتمدا على أن الناصر محمد كان أوصاه وأوصى غيره، أن من تسلطن من أولاده، ولم يسلك الطريق المستقيم يعزل، ويملك غيره. فاتفق معه بقية الأمراء، وتم خلع الكامل شعبان بعد سنة وشهر واحد فقط، وأعدم بعد ذلك. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٢، ص ٢٨٩.

٤٠) أرغون العلائي: من مماليك الناصر محمد. وتنقل إلى أن استقر رأس نوبة الجمدارية. ثم تزوج أم السلطان الصالح إسماعيل. فلما مات الناصر محمد نفي إلى قوص فلما ولي السلطنة إسماعيل صار هو أكبر الأمراء، ومدبر الدولة. ثم اعتقل في دولة السلطان المظفر حاجي بالاسكندرية بعد أن ضرب. ثم أحضر إلى القاهرة في سنة ٧٤٨ هـ فقتل فيها. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ١، ص ٣٧٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ١٠، ص ١٨٥ ــ ١٨٦.

٤١) بيبغا ططر أو تتر حارس الطير: كان أحد الأمراء في مصر. وولي نيابة غزة عدة مرات. ثم ولي «النيابة» بالقاهرة في ولاية الناصر حسن الأولى، ثم صرفه الصالح صالح. ثم تنقلت به الأحوال إلى أن مات بطالا في طرابلس سنة بضع وستين وسبعمائة. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٢، ص ٤٤.

٤٢) صرغتمش الناصري: جلبه ابن الصواف التاجر سنة بضع وثلاثين، فاشتراه الناصر محمد بنحو أربعة آلاف دينار، لجمال صورته، وحسن شكله، ومع ذلك لم يتقدم أيام الناصر محمد. وقد كان أحد الأسباب في فتنة قوصون مع المماليك الناصرية ثم تآمر طبلخاناه في سنة ٧٤٩ هـ. ثم في سنة ٧٥٢هـ استقر رأس نوبة كبيراً، فتصرف في الولاية والعزل، ثم أصبح ذا نفوذ وسلطة إلى أن تمادى، فأمسك بأمر الناصر حسن سنة ٧٥٩هـ، وأرسل إلى الاسكندرية حيث قتل. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ٢، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، جـ ١٠، ص ٣٢٨.

٤٣) ازدمر الناصر الخازندار الأمير عز الدين: تنقل في الخدم إلى أن صار دو يدارا، ثم كان هو ومنكلي بغا، قد قاما على صرغتمش، وتحكما بعده، ثم أخرجه منكلي بغا في الأتابكية في سلطنة الأشرف. ثم استدعاه إلى مصر، فأقام بها يسيرا، ثم مات سنة ٧٦٩ هـ. أنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، جـ ١، ص ٣٧٨، السلوك لمعرفة دول الملوك، نزي، جـ٣، ص ٩، ١١، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٤٨، ٨٤، ١٥٦، ١٦١، ١٦٤.

المراجع العربية

ابن إياس، محمدبن أحمد (ت ٩٣٠هـ/ ٥٢٤م)
بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٤م.

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، «رحلة ابن بطوطة» تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت، ١٩٧٥م.

ابن تغرى بردى، ابو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزءا، القاهرة، ١٩٢٩ ــ ١٩٥٦م.

ابن الجيعان، يحيى بن شاكر (ت ٨٧٤هـ /١٤٧٠م)
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، تحقيق ب، مورتز، القاهرة، ١٨٩٨م.

ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الجزء الأول، تحقيق محمد محمد امين، القاهرة، ١٩٧٧م.

ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد السيد جاد الحق، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م.

ابن دقماق. إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة، ١٨٩٣م.

ابن شاكر، محمد بن أحمد الكتبيي (ت ٧٦٤هـ/١٣٩٣م)
فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤م.

ابن عبدالظاهر محي الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

ابن العماد، عبدالحي أحمد (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، القاهرة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢م.

ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م)
تاريخ الدول والملوك، الأجزاء ٧، ٨، ٩، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٩م.

البلوي، خليل بن عيسى — **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، رحلة البلوي، في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي باريس: المكتبة الوطنية، مخطوط تحت رقم MS. 2286.

الحجي، حياة ناصر — **ـ أحوال العامة في حكم المماليك، ٦٧٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٧٩ ـ ١٣٨٢م. دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية**. الكويت: ١٩٨٤م.

ـ السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده مع تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس، الكويت ١٩٨٣م.

دوزي، رينهارت — **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، بغداد ١٩٨١م.

السبكي، تاج الدين عبدالوهاب — **معيد النعيم ومبيد النقم**، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٣م.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) — **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ١٢ جزءاً، القاهرة، ١٢٥٣ ـ ١٣٥٥هـ/١٩٣٤ ـ ١٩٣٦م.

عيسى بك، أحمد — **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، الطبعة الثانية، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١م.

القرشي، محمد بن محمد بن أحمد (ت ٧٢٩ هـ/١٣٢٩م) — معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق، محمد محمد شعبان القاهرة، ١٩٧٦م.

القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م) — **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ١٤ جزءاً، القاهرة، ١٩١٣ ـ ١٩٢٢م.

المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) — **ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ٢**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، جـ ٣، ٤: تحقيق، سعيد عبدالفتاح عاشور القاهرة، ١٩٣٩ ـ ١٩٧١م.

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، القاهرة: دار التحرير، طبعة بولاق، ١٩٥٣م.

النويري، احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢/١٣٣٢م) — **نهاية الأرب في فنون الأدب**، القاهرة: دار الكتب المصرية، مخطوط تحت رقم ٥٤٩، معارف عامة، الأجزاء/ ٢٩، ٣٠، ٣١